لماذا سيحرق مسلم
ما شجرة ميلاد المسيح؟
ابحثوا عن الفتاوى القديمة،
والحديثة، الرابضة في كتب
الحديث. ليس لبنان كأي بلد
عربي آخر في هذه المسألة.
المسيحيون فيه ليسوا أقلية.
شجرتهم، التي لطالما شاركهم
فيهم مسلمو لبنان، غزت
أخيراً معاقل الإسلاميين، السنة
والشيعة، برعاية المعتدلين...
ضمن لعبة شد حبال لاستمالة
«الكفار»

تفاخر فتيات يرتدين العباءة السوداء بشجرة الميلاد التي تزين بئر العبد (هيثم الموسوي)

هللويا... ورحمة الله وبركاته

محمد نزال

لو عاد إلى الحياة بعض الذين عاشوا في الضاحية الجنوبية لبيروت، خلال حقبة الثمانينيات والتسعينيات، ورأوا شجرة الميلاد مضاءة اليوم في شوارع حارة حريك وبئر العبد، لما صدّقوا أن هذه هي الضاحية حقّاً. العالم يتغيّر، والضاحية تغيّرت، نسبياً، ويصحّ فيها لسان بعض عجائزها عندما يقولون: «ما بيبقى على ما هو إلا هو». كل شيء يمكن حركةَ الزمان أن تجد فيه الثقوب المناسبة، لتعبر منها، فتختلف الصور في تمظهراتها. حتى مبدأ «عدم التشبّه بالكفّار» يُصبح ممكناً القفز فوقه، بألف طريقة وطريقة، وما كان بالأمس «بدعة سيئة» يُصبح اليوم «بدعة حسنة». العالم يتغيّر، والضاحية تتغيّر، ووحدهم الذين لا يستوعبون حركة الزمان يتلقّون الصفعات، والصدمات، ولكنهم في نهاية الأمر يُسلمون للأمر الواقع تحت عنوان «المصلحة العامة».

عندما يُقال الضاحية، يعني شيعة، هكذا أصبح الإيحاء تلقائياً. لم يكن الشيعة في لبنان، وفي الضاحية تحديداً، على مزاج واحد في يوم من الأيام. حتى في عزّ أيام «الراديكالية» كان هناك من يُزيّن شجرة الميلاد داخل منزله، عملاً بسُنّة «العيش المشترك» في لبنان، والتعايش الإسلامي المسيحي، وربما قبل ذلك بما تبنّه «طقوس الشجرة» من أجواء فرح وبهجة. كثيرون اليوم، ممن يتمسّكون بالشريعة الإسلامية في الضاحية، كبروا في بيوت كانت تُزيّن بالشجرة كل عام. بعض هؤلاء انخرطوا لاحقاً في الأحزاب الشيعية، منهم من استشهد ومنهم من لا يزال إلى اليوم يقاتل. لكن، ما لم يكن مألوفاً في السابق، هو انتصاب شجرة الميلاد الضخمة أمام بلدية حارة حريك، وفي شارع الاستشهادي أحمد قصير، الشارع الذي ضُرب أخيراً بتفجيرين انتحاريين، أحدهما كان منفّذه لبنانيّاً من منطقة الشمال.

ماذا عن شجرة الميلاد في الشمال؟ الضاحية شيعية اليوم بأكثريتها الساحقة، وإن كان فيها، سابقاً، عدد وازن من المسيحيين (ميشال عون ابن حارة حريك). لكن الشمال كان، وما زال، للمسيحيين فيه حضور أكثر من وازن. خلال السنوات الأخيرة، خاصة في ظل سطوة «السلفية» على النفس الطرابلسي، أقلّه في الشكل والإعلام، لم يكن أحد ليخطر في باله الحديث عن وضع شجرة الميلاد. ظنّ البعض أن طرابلس أصبحت، أو ستصبح، على شاكلة قندهار زمن حكم طالبان لأفغانستان. لكن ها هو الوزير أشرف ريفي، الطرابلسي القحّ، يُدشّن إلى جانب رجال الدين المسيحيين شجرة الميلاد، قبل أيام، في وسطة عاصمة الشمال. ينادي من أمام الشجرة، قائلاً: «مرة جديدة تثبت طرابلس وجهها الحقيقي، فتاريخها تاريخ العيش المشترك والوحدة الوطنية، وهي مدينة المحبّة والسلام والعلم والعلماء، وكل حملات الافتراء وحملات التشويه اندثرت، وباتت وراءنا». سيجد هذا الكلام مثيله في الضاحية أيضاً. فتيات، ممن يلبسن العباءة السوداء، يفاخرن على مواقع التواصل الاجتماعي بشجرة الميلاد التي تُزيّن منطقة بئر العبد. رئيس بلدية حارة حريك، زياد واكد، يقول: «خلال السنوات الأخيرة بتنا نضع الشجرة في الشارع العام، ولم نلق أي اعتراض، بل على العكس، أعرف أن «الأخوة» يضعون الشجرة في منازلهم إليهم». عندما يقال «الأخوة» في الضاحية فهذه إشارة إلى «شباب حزب الله». كنيسة مار يوسف، في حارة حريك، المحاطة بمنازل الحزبيين، انتصبت أمامها أيضاً شجرة ميلاد ضخمة.

> **يبدو المسيحي كمن عليه الاختيار بين شجرة الضاحية أو شجرة طرابلس**
>
> **باب الاجتهاد أوسع عند الشيعة في مسألة الاحتفال بميلاد المسيح**

ماذا عن السياسة؟ ريفي، مثلاً، يُدرك أن سيلاً هائلاً من فتاوى «السلف الصالح» ستعارضه في مسألة الشجرة وأصل شرعيتها. في الضاحية يُدرك المعنيون، أيضاً، أن بعض الميول المتشددة لا تزال، حتى اليوم، وهي لا تستسيغ شجرة الميلاد، شرعاً. لكن يُلحظ أنّ هذا النفَس في الساحة الشيعية أقل، بنسبة عالية، مما هو عليه في الساحة السُنيّة. هكذا، في كلتا الصورتين، يظهر أن ثمّة رغبة باستمالة المسيحيين. كأن الشخصيات السياسة السنيّة، من الذين يصفون أنفسهم بالمعتدلين، يريدون القول للمسيحيين: «نحن نحبكم أكثر». يعني لا بد لهم من إرسال رسائل محبّة، إلى بيئة «القوات اللبنانية» المسيحية، وغالباً ما يكون ذلك يستبطن نوعاً من النكاية بالطرف الإسلامي الآخر. هذا الطرف الآخر لديه رسائله أيضاً، كأنه يريد أن يقول لبيئة «التيار الوطني الحر» المسيحية، نحن الذين «نحبّكم أكثر». لم تكن هذه الإشارات لتظهر قبل اللقاء الشهير بين السيّد حسن نصر الله والعماد ميشال عون في كنيسة مار مخايل. ربما من هنا تُفهم «حماسة» قناة الـ«OTV» « لتغطية حدث شجرة الميلاد في الضاحية، وتقابلها حماسة مماثلة من قناة الـ«MTV» « لتغطية حدث شجرة طرابلس. يبدو المسيحي اللبناني اليوم كمن عليه الاختيار بين شجرة الضاحية وشجرة طرابلس، شجرة الشيعة أو شجرة السنّة، وهكذا.

سابقاً شهدت طرابلس إحراقاً لشجرة ميلاد، وهذا العام، قبل أيام، تعرضت الشجرة التي وضعت عند تقاطع إيليا في مدينة صيدا للحرق أيضاً. شخصيات تيار المستقبل، ومن يدور في هذا الفلك، كانوا يسارعون إلى التصريح بأن هذا الفعل «لا يمتّ إلى الإسلام بصلة». في الضاحية لم يحصل حرق لتلك الشجرات. ما حكاية الحرق والاعتداء والاعتراض على تلك الشجرة، قديماً وحديثاً، عند المسلمين؟ في الواقع، ربما وجب لفت نظر